من ظرفاء العصر العباسي :

٢ ـ أبو العينـــاء

١٩١ — ٢٨٣ هـ

للأستاذ صبحي إبراهيم الصالح

وما أستطيع — ولا أحسبك تستطيع — أن تكتم أعجابك بهذا الظريف وهو يدلك على مواطن الغنى من نفسه ، ومواضع العزة فى تصرفاته ، إذ يوحى إليك أنه غض الطرف عن زهرة الحياة الدنيا ، وكف البصر من متاعها القليل وعرضها الأدنى . فينشد مزهواً مرفوع الهامة :

الحمـــد لله ليس لى فرس ولا على باب منزلى حرس
ولا غـــلام إذا هتفت به بادر نحـــوى كأنه قبس

ابنى غـلامى وزوجتى أمَتى ملكتنيها الملاك والعرس
فنيت باليأس واعتصمت به عن كل فرد بوجهه عبس
فـــا يرانى ببابه أبداً طلق المحيا سمح ولا شرس

إذن هو يحمد الله — الذى لا يحمد على مكروه سواه — على أنه لم يجعل له مالا ممدودا ؛ فليس له خيل مسومة ، وأفراس مطهمة ، وليس له على الأبواب ، حراس ولا حجاب ؛ ولا له غلمان وجوار ، كأنهم فى المبادرة نحوه شعلة من نار : وإنما غلامه الوحيد ابنه وفلذة كبده ، وجاريته الفريدة هى زوجته التى دفع إلى أوليائها مهرها فملكها بعد وليمة عرسه ... فحسبه اليأس مما فى أيدى الناس ، فان فيه غنى النفس يعتصم به عن الذين يصعرون الخد ، ويقطبون الجبين ؛ بل ليأخذن ميثاق نفسه للأفقرنه هزاهز الدهر ثم قعدت به الأيام عن طلب الرزق ليعزن بكرامته ، فلا يقرع باب مخلوق متزلفاً متملقاً ، ولا يسأل من الناس سمحاً ليناً لطيفاً ، ولا شرساً قاسياً عنيفا ، أعطوه أو منعوه !

يالها من مهارة !

أما وإن هذه المهارة عند أبى العيناء فى إبراز شخصيته هى التى أكسبته ثقة بنفسه لاتتزعزع ، وأخافت كثيرين من التصدى لمارضته ، لأنه كان سريع الجواب حاضر البديهة لاذع النكتة ؛ ما جابه إنساناً إلا غلبه ، ولا ناقشه إلا أفحمه ، ولا جادله إلا ظهر عليه .

ولا ريب أن اسماعه من الأصمعى وأبى عبيدة والانصارى والعتبى وأبى عاصم البنيل الذين سبق أن ذكرنا أسماءهم فضلا كبيراً على فصاحته وبلاغته ، ولسنه وظرفته ؛ وعذوبة شعره وسهولة نثره ، وحسن اختياره ، فى رواية أخباره !

ولقد كانت حياة هذا الظريف حافلة بكل مدهش وغريب ، فاذا كان قد عاصر قبل عماه المأمون والمعتصم والواثق ، فأنه عاصر بعد عماه المتوكل الذى دام أربعة عشر عاماً فأمسى أبو العيناء فى السادس والخمسين ، ثم عاصر ابنه المنتصر الذى دام ستة أشهر فأتم أبو العيناء السابع والخمسين ، ثم المستعين الذى خلع بعد أن بقى أربعة أعوام فصار أبو العيناء فى الواحد والستين ، ثم المعتز الذى خلع نفسه بعد ثلاثة أعوام فأصبح أبو العيناء فى الرابع والستين ، ثم المهتدى الذى خلع بعد أقل من عام فأضحى أبو العيناء فى

التشويق والمفاجأة ، وعلى التسلسل الفنى فى عرض الحوادث عرضاً لا تحس فيه انقطاع الصلة بين الفن والحياة . أما أساس العمل الفنى فى المسرحية فهو « الصراع » ؛ الصراع النفسى والفكرى والفنى كما يقسمه واضع الدعامة الأولى للأدب المسرحى الحديث هنريك إبسن ، وأما الصراع النفسى فهو ذلك الذى يكون بين ميول نفسية ، والفكرى هو ذلك الذى يكون بين ميول ذهنية ، والفنى هو ذلك الذى يتمثل فى عملية الحوار ، من ناحية صدق الصلة بينه وبين كل شخصية تلعب دورها على المسرح . كل هذه الدعائم لا بد من توفرها ليتم البناء الفنى الكامل للمسرحية الناجحة ، وقد تجد بعض هذه الدعائم متوفراً فى المسرحية المصرية ؛ ولكن مصدر إخفاقها هو خلوها فى كثير من الأحيان من عملية « الصراع » بأركانه الثلاثة مجتمعة ، وبخاصة الصراع النفسى ، فليس فيها منه إلا ومضات قليلة مبعثرة تشع هنا وهناك .!

هذه هى الظواهر التى خرجت بها من دراستى لبعض جوانب حياتنا الأدبية فى السنين الأخيرة ، وهى ظواهر تستطيع كما قلت لك أن تلمس فى كل منها مشكلة تتعدد فيها الجوانب ، وتتشعب الزوايا ، وتبقى بعد ذلك فى انتظار العلاج !

أنور المعداوى

الخامس والستين ، ثم المعتمد الذى ظل ثلاثة وعشرين عاماً فأشرف أبو الميناء على الثامن والثمانين ، ثم المفوض الذى خلع نفسه فى السنة ذاتها ، وأخيراً حضر ثلاث سنوات أو أربعاً من خلافة المقتدر توفى على أرجح سنة اثنتين وثمانين ومائتين كما قال الدارقطنى ، أو سنة ثلاث وثمانين ومائتين كما قال أبو جعفر بن أبى الميناء . ولا بأس إذا رجحنا رواية الابن فى هذا المقام . وهكذا فقد عاش أبو الميناء ثلاثة وتسعين عاماً ، أو قل إنه عاش قرناً إلا قليلا !

وما هذا بالعمر القصير ... فقد تقلبت فى حياة أبى الميناء عصور كثيرة فرأى فى خلالها ملوكا تعز وتذل ، وحكومات تحيا وتموت ، وأبطالا يسوقون الناس إلى الموت ثم يساقون إلى الموت ، ورجالا أكبروا النظام فأسسوا وبنوا ، وجماعات استحبوا الفوضى فهدموا وحطموا : وكان لهذه المشاهد فى نفسه آثار كانت تتفاوت قوة وضعفاً ، وإيجاباً وسلباً ، وغموضاً ووضوحاً ، فتعلم الثقة بنفسه حين ألقى ثقته بالناس لاتفهمه ، ورأى بهجة الدنيا لاتستحق العناء لما قاسها بمصائبها التى تكدر صفوها ، فإذا هو يبكى على حرمانه ، ثم يزهد زهادة الفقير الضعيف ، ثم يتشكى إلى نفسه ، وينشد من صميم قلبه :

تولت بهجة الدنيا فكل جديدها خلق
وخان الناس كلهم فما أدرى بمن أثق
رأيت معالم الخيرا ت سدت دونها الطرق
فلا حسب ولا أدب ولا دين ولا خلق !

وإن مجتمعاً خالياً من روح الثقة بين أفراده وجماعاته ، قد سدت الطرق دون معالم الخيرات فيه ، حتى أبطأ بالجليب حسبه حين لم يسرع به عمله ، وجنى على الأديب أدبه حين كسدت بضاعته ، ولم يرفع المتدين دينه حين ضعفت مكانته ، ولم يعز الفاضل خلقه حين ضاعت كرامته — إن مجتمعاً هذه بعض أوصافه ليس بالمستقر الصالح ، ولا بالمثابة الآمنة .

لكن أبا الميناء — على سخريته بمجتمعه ، واستخفافه بأهل زمانه — قد أدرك الحقيقة التى لاتخفى على الحكيم ، وعرف كثيراً من أسرار القلوب وخبايا النفوس التى لا تكشفها إلا التجارب ، فوازن بين فصاحة الفصحاء وسوء حالهم ، وبين دراهم الأغنياء ونعومة عيشهم ، فعصر الألم قلبه ، وأنطق لسانه ، ففاض شعره بالحسرة وهو يقول :

من كان يملك درهمين تعلمت شفتاه أنواع الكلام فقالا
وتقدم الفصحاء فاستمعوا له ورأيته بين الورى مختالا
لولا دراهمه التى فى كيسه لرأيته شر البرية حالا
إن الغنى إذا تكلم كاذباً قالوا صدقت وما نطقت محالا
وإذا الفقير أصاب قالوا لم تصب وكذبت يا هذا وقلت ضلالا
إن الدراهم فى المواطن كلها تكسو الرجال مهابة وجلالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحةً وهى السلاح لمن أراد قتالا

ولما آمن بأن الدراهم هى لسان الفصيح ، وسلاح المقاتل ، بحث عنها فلم يجدها ، أو قل إنه وجد القليل منها ، فأخذ يعزى نفسه بالنكتة اللاذعة ، والدعابة الموفقة ، والرواية الطريفة ، يدخل بها السرور على قلبه المحزون وعلى قلوب جلسائه ومعارفه ، حتى اشتهر أمره بين أهل عصره ، وذاع صيته بين أعلى الطبقات وأوسطها وأدناها ، فنادم بعض الخلفاء والأمراء والوزراء ، كما جاور الأدباء والشعراء والظرفاء ، ثم سامر العامة العاديين : فكان الجميع معه على أمرهم مغلوبين ! . . .

— ٤ —

ويبدو أن المتوكل كان أشد الخلفاء رغبة فى اتخاذ أبى الميناء نديماً ، حتى قال ذات مرة لجلسائه : « لولا أنه ضرير لنادمناه » فلما بلغه ذلك قال : إن أعفانى من رؤية الأهلة ونقش الفصوص صلحت المنادمة » هذه رواية معجم الأدباء ، ونجد مثلها فى تاريخ بغداد (ص ١٧٤ ج ٣) . وكان هذا الجواب باعثاً على إرسال المتوكل فى طلبه . فلما دخل عليه فى قصره المعروف بالجعفرى سنة ست وأربعين ومائتين قال له : « ما تقول فى دارنا هذه ؟ فقال أبو الميناء : أن الناس بنوا الدور فى الدنيا ، وأنت بنيت الدنيا فى دارك :

فاستحسن كلامه ثم قال له : كيف شربك للخمر ؟ قال : أعجز عن قليله ، وأفتضح عند كثيره . فقال له : دع هذا عنك ونادمنا . فقال : أنا رجل مكفوف ، وكل من فى مجلسك يخدمك وأنا محتاج أن أخدم . ولست آمن من أن تنظر إلىّ بعين راض وقلبك على غضبان ، أو بعين غضبان وقلبك راض ، ومتى لم أميز بين هذين هلكت ؛ فأختار العافية على التعرض للبلاء . فقال : بلغنى عنك بذاء فى لسانك . . . فقال : يا أمير المؤمنين ، قد مدح الله تعالى وذم فقال « نعم العبد إنه أواب » وقال عز وجل « عتل مشاء بنميم » وقال الشاعر

إذا أنا بالمعروف لم أثن سادناً ولم أشتم النكس اللئيم المذمما
فقيم عرفت الخير والشر باسمه وشق لى الله السامع والفما ؟
ما أحسنه من تخلص !

يعتذر أبو العيناء عن خبث لسانه بأنه لا يشتم إلا اللئيم ، ولا يهجو إلا الذميم ، كما أنه لا يثنى إلا على صاحب المعروف ، ولا يمدح إلا الحقيق بالمدح ، كأنه يريد أن يقنع السامع بصدقه فى شتمه وهجائه ، وفى مدحه وثنائه ؛ لأنه يذكرك بأن معرفة الشر باسمه ، أو الخير برسمه ، تدل على تفكير ساذج لا يعدو ظواهر الأمور ، ولصاحبه أذن لا يسمع بها ، ولسان لا ينطق به : لأن الإنسان الذى لا يعبر عما سمع وتفهّم ملتو ببيانه ، مائل ميزانه .

ولنا — أمام هذا العرض الواضح — أن نقرر أن أبا العيناء كان شديد الصراحة فى التعبير عن رأيه الخاص ، يحب مجابهة كل إنسان بما يلمس فيه من عيب ، وللعيب مقياس شخصى عنده لا يوافقه عليه كثير من الناس . ويبرز لنا هذا المعنى من نفسه جوابه الشافى لمن سأله : « إلى متى تمدح الناس وتهجوهم ؟ قال : ما دام المحسن يحسن ، وما دام المسىء يسىء . وأعوذ بالله أن أكون كالعقرب تلسب(١) النبى والذمى ! » .

ولقد تبلغ به صراحته مبلغاً يحمله على الاعتراف بما يؤذيه ، ولا سيما إذا غلبته النكتة على أمره . فانه ساعتئذ ينساق مع ما يجيش فى نفسه ، ومع ما يلذ لسامعه ، ولو اتهم برقة فى دينه ، وضعف فى يقينه ، وزلزلة فى عقيدته .

دخل يوماً على المتوكل فقدم إليه طعام ؛ فمس لقمته فى خل كان حاضراً وأكلها . فتأذى بالحموضة ، وفطن الخليفة له فجعل يضحك . فقال : « لا تلمنى يا أمير المؤمنين ! فقد محت حلاوة الإيمان من قلبى » !

وإن رجلا يمرض بمحو حلاوة الإيمان من قلبه ليستر امتعاضه بدعابته — لرجل صريح ما فى ذلك ريب . ومثله لا يرى فى بذاءة اللسان عند اللزوم إلا وصفاً للواقع ، فهو فى سفاهته يتحدث عن صراحته ، لا يسأل عمن أمامه ، ولا يكترث بما يحيط به ...

كان المتوكل يكره التشيع لعلى بن أبى طالب وآله . فسأل أبا العيناء : « هل رأيت طالبياً حسن الوجه ؟ » .

قال : نعم ، رأيت ببغداد منذ ثلاثين واحداً . قال : تجده كان مؤاجراً (يؤجر نفسه) وكنت أنت تقود عليه . فقال : يا أمير المؤمنين أو يبلغ هذا من فراغى ؟ أدع موالى مع كثرتهم وأقود على الغرباء ؟

فقال المتوكل للفتح : أردت أن أشتق منهم فاشتق لهم منى ! »

وهذه صراحة منقطعة النظير لم يشجع أبا العيناء عليها إستخفاف المتوكل بالطالبيين ورميه إياهم بعبارات لا تليق بقدر ماشجعه عليها اعتقاده الخاص بآل البيت ورغبته فى إفحام الخليفة نفسه . ولست أعنى بهذا أنه كان متشيعاً لآل البيت ، فما يكون بأبه لشىء من هذا ، وإنما كان يكون لنفسه رأياً خاصاً فى كل من يلقاه : يصاحب من يريد ، ويخاصم من يريد ، ويهمه — قبل كل شىء — ألا يعلو عليه مخلوق .

وكما ظهر أبو العيناء بمظهر الدافع عن آل البيت ليفحم الخليفة المتوكل بجوابه ، خاصم يوماً علوياً ولم يكترث بتشيعه . فقال له العلوى : « تخاصمنى وقد أمرت أن تقول : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ؟ فقال : لكنى أقول الطيبين الطاهرين فتخرج أنت ! » .

فالرجل معارض من الطراز الأول ، ومولع بأن تظفر معارضته حيث كان ، وأمام كل إنسان مهما كان ؛ ولكنه إذا سمع مافيه مقنع لنفسه بعد طول الحوار رضى به ويبدى إعجابه ولو صدر من صبى أو غلام . نعرف هذا من قوله « أخجلنى ابن صغير لعبد الله ابن خاقان قلت له : وددت أن لى إبناً مثلك . قال : هذا بيدك ! قلت : كيف ذلك ؟ قال : تحمل أبى على امرأتك فتلد لك ابناً مثلى »

وأظن هذا عائداً إلى صراحته حتى بعثه إعجابه بالصغير على الخجل منه وعلى تسجيل هذا الخجل على نفسه . فلا تستغرب منه بعد ذلك أى موقف أمام المتوكل وغيره ترك فيه نفسه على سجيتها ، ولم يتكلف ولم يصطنع .

انظر إليه وقد دخل على عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وهو يلعب بالشطرنج فقال : فى أى الحيزين أنت ؟ فقال : فى حيز الأمير أيده الله . وغلب عبيد الله فقال : يا أبا العيناء قد غلبنا . وقد أصابك خمسون رطل ثلج . فقام ومضى إلى ابن ثوابة وقال : إن الأمير يدعوك . فلما دخلا قال : أيد الله الأمير ! قد جئتك بجبل همذان وما سبذان ثلجاً فخذ منه ما شئت ! » .

وهكذا لم يجد لداعبة الأمير إلا ابن ثوابة ، فاتهمه بالبرودة

(١) تلدغ

وجعله جبلا من الثلج ؛ فما رجا لابن ثوابة وقاراً ، ولا استحيا من الأمير !

ومواقفه مع جميع الأمراء كمواقفه مع الدهماء . ولقد حجبه أمير ثم كتب إليه يعتذر منه فقال : «تجهمني[1] مشافهة وتعتذر إلى مكاتبة ؟» ، وشكا تأخر أرزاقه إلى عبيد الله بن سليمان ، فقال له : «ألم نكن كتبنا لك إلى ابن الدبر ؟ فما فعل في أمرك ؟ قال : جرني على شوك المطل[2] ، وحرمني ثمرة الوعد . فقال : أنت اخترته . فقال : وما عليّ وقد «اختار موسى قومه سبعين رجلا» فما كان منهم رشيد «فأخذتهم الرجفة» ، واختار النبي صلى الله عليه وسلم ابن أبي سرح كاتباً فلحق بالمشركين مرتداً ، واختار علي بن أبي طالب أبا موسى الأشعري حكماً فحكم عليه ؟».

أما نوادره مع الوزراء فأكثر من أن تحصى ، وأبدع من أن تروى ، ولا مدى لنا عن ذكر بعضها من غير تعليق تمثيلا للقارىء وترويحاً عن نفسه :

دخل على أبي الصقر إسماعيل بن بلبل الوزير فقال له : «ما الذي أخرك عنا يا أبا العيناء ؟ فقال : سرق حماري . فقال : وكيف سرق ؟ قال : لم أكن مع اللص فأخبرك . قال : فهلا أتيتنا على غيره ؟ قال : قعد بي عن الشراء قلة يساري ، وكرهت ذل المكاري[3] ومنة العواري» .

ووعده ابن المدبر يوماً أن يعطيه بغلا ، فلقيه في الطريق . فقال : «كيف أصبحت يا أبا العيناء ؟ فقال : أصبحت بلا بغل» فضحك منه وبعث به إليه .

وحمله وزير على دابة ؛ فانتظر علفها . فلما أبطأ عليه قال : «أيها الوزير ! هذه الدابة حملتني عليها أو حملتها عليّ ! » .

وكان يتطاول على الوزير أحمد بن الخصيب حتى وضع كتاباً في ذمه حكى فيه : «أن جماعة من الفضلاء اجتمعوا في مجلس ، وكل منهم يكره ابن الخصيب لما كان فيه من الفدامة[4] والجهالة والتغفل ، فتجاذبوا أطراف المليح في ذمه ؛ فقال أحدهم : كان جهله غامراً لعقله ، وسفهه قاهراً لحلمه . وقال آخر : لو كان دابة لتقاعس في عنانه ، وحرن في ميدانه . وقال آخر : كدت إذا وقع لفظه في سمعي أحسست النقصان في عقلي . وقال بعض كتابه : كنت أرى قلم ابن الخصيب ، يكتب بما لا يصيب ، ولو نطق لنطق بشوك مجيب . وقال آخر : لو غابت عنه القافية لنسيها . وقال أبو العيناء في آخر هذا التصنيف : «كان ابن الخصيب إذا ناظر شغب ، وربما رفس من ناظره إذا عجز عن الجواب ، وخفي على الصواب ، واستولت عليه البلادة ، وعرى كلامه عن الإفادة ؛ وكان إذا دنوت منه غرك ، وإن بعدت عنه ضرك ، فحياته لا تنفع وموته لا يضر .

لذلك هجاه قائلا :

قل للخليفة يا ابن عم محمد ... أشكل وزيرك إنه ركال
قد أحجم المتظلمون مخافة ... منه ، وقالوا ما نروم بحال
ما دام مطلقة علينا رجله ... أو دام للنزق الجهول مقال
قد نال من أعراضنا بلسانه ... ولرجله بين الصدور مجال
امنعه من ركل الرجال وإن ترد ... مالا فعند وزيرك الأموال

فما زاد أبو العيناء على أن جعل ابن الخصيب ركالا يطلق رجله على الناس ، وطالب الخليفة بأن يضع فيه الشكال الذي تقيد به الدابة . وأحسب أن هذا منتهى ما يصل إليه الهجاء !

(البقية في العدد القادم)

صبحي ابراهيم الصالح

(١) تؤنبني حتى أنكس رأسي .
(٢) التسويف والإبطاء بالوعد .
(٣) المؤجر .
(٤) العي في اللسان والبلاهة في الفهم .

إدارة البلديات العامة — مياه

تقبل العطاءات بإدارة البلديات العامة (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر يوم ١٩٤٨/٥/٥ عن عمليه إنشاء خزان عالى للمياه بينها وتطلب الشروط والمواصفات الخاصة بذلك من الادارة على ورقة تمغة من فئة الثلاثين مليما مقابل دفع مبلغ قدره ٣ جنيهات للنسخة الواحدة عدا أجرة البريد

٩١٦٩

(ملحوظة) في العدد الماضي نشرنا هذا الاعلان وقد جاء فيه أن ثمن النسخة ثلاثة قروش والصواب ثلاثة جنيهات